وقفة مع الأديب اليمنى عبدالعزيز المقالح، وتحليل شعره

مهدى ممتحن*
سيدجواد حسينى ننيز**

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٧/٥هـ ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٧/٢٤هـ ش

الملخص

يعتبر الأستاذ الأديب الشاعر عبدالعزيز المقالح أحد أشهر أدباء اليمن المعاصرين وخارجها، خاصة فى مجال الشعر، والنقد الأدبى، والتدريس الجامعى، وله أيضاً أعمال أدبية وكتابات فكرية وسياسية وله أعمدة فى الصحف والمجلات اليمنية والعربية الأخرى. كما أنه أنشد شعراً فى مختلف الأغراض الشعرية، لذلك نجد دواوينه تتناول مواضيع متنوعة مثل: المديح، والرثاء، والوصف، والزهد، والتصوف، والمسرحية، والدرام، والوطنيات، وقصيدة النثر، وما إلى ذلك من الأغراض الشعرية، كذلك نلاحظ تأثير القرآن، وعلوم الدين، والبيئة التى يعيش فيها على قصائده، حيث استخدم التلميح، والاقتباس خير استخدام.

ومن ناحية أخرى، كان الشاعر عبدالعزيز المقالح ملحمى النفس، اجتهد فى الاجتياز بشعره من الغنائية إلى شعر ميتافيزيقى وطنى يختار حب الوطن تحت إخفاء المعانى المباشرة السطحية لهذا الحب والارتقاء بها، وبالحدث التاريخى إلى الحلم العميق، من خلال الحنين إلى الماضى وبعثه ونظر إليه على أنه فردوس مفقود كطفولته الضائعة.

الكلمات الدليلية: الأديب، الحب، الشعر، المقالح، الوطن، اليمن، الأدب المعاصر.

*. أستاذ مشارک بجامعة آزاد الإسلامية فى جيرفت، إيران. Dr.momtahen@gmail.com
**. خرّيج جامعة آزاد الإسلامية فى جيرفت، إيران.

المقدمة

يعتبر الأســتاذ الشــاعر عبدالعزيز المقالح أحد أدباء اليمن المعاصرين، نشــر المقالح عدداً كبيراً من الدواوين والدراســات الأدبية والفكرية تبلغ نحو خمسين كتابــاً.وكان لــه مقالات نقدية متناثــرة فى الصحف والمجــلات اليمنية والعربية الأخرى.حصل الشــاعر على عدد كبير من الجوائز الهامة: مثل جائزة اللوتس عام ١٩٨٦م، و جائزة الثقافة العربية اليونسكو باريس ٢٠٠٢م، و....حصل الأستاذ على إجــازة فى اللغة العربية وآدابها ســنة ١٩٧١م، من جامعة القاهرة، ثم حصل على درجة الماجســتير فى الأدب العربى ســنة ١٩٧٤م، ثم نال شهادة الدكتوراه سنة ١٩٧٧م، من جامعة عين الشمس.

شــارك فى ثورة ٢٦ سبتمبر ســنة ١٩٦٢م، باليمن.عمل أستاذاً مساعداً فى جامعة صنعاء فى أواســط ١٩٧٠م، ثم أستاذاً، وكان إلى جانب تدريسه بالجامعة يــرأس إدارتها، ثم عين مستشــاراً ثقافياً لرئيس الجمهورية.بدأ كتابة الشــعر فى منتصف الخمســينيات، وهو قديم العهد بالشعر، ربما ترجع بدايته فيه إلى بداية عام ١٩٥٨م، فقد نرى له قصائد عام ٥٨ و٥٩م، وكان يذيلها باسم مستعار هو ابن شاطى. (البردونى، ١٩٧٨م: ٢٠٦)

يتناول هذا المقال فى البداية، حياته، وسيرته، ثم يتطرق إلى العلوم الدينية، والإشــارات التاريخية فى شعره، ثم إلى بعض الأغراض الشعرية فى دواوينه مثل: الزهد والتصوف، والرثاء، والمسرحية، والدرام، والوطنيات، وقصيدة النثر.

لمحة عن حياة الشاعر عبدالعزيز المقالح

ولد الشــاعر عبد العزيز المقالــح عام ١٩٣٧م فى محافظــة أب قرية المقالح منطقة الشعر فى أســرة فلاحية تمارس مهنة المشيخ عرفاً وتقليداً،فوالده الشيخ صالح المقالح واحد من أكبر مشــايخ الضمان بالمنطقة. انتقل إلى صنعاء فى سن السادســة ملتحقاً بمدرســة الإرشــاد فى (الزمر) حى من أحياء صنعاء القديمة، وتعلّم بها، حفظ الكثير من ســور القرآن الكريم، والحديث الشــريف، ومسائل فى علــوم الفقه والعباداة، وأصول النحو العربى، وعدداً غير قليل من أناشــيد، وبعض المحفوظات خاصة أثناء ما كان فى الصف الرابع والخامس والســادس، حيث كان

يقدم للطلاب تشـكيلة من القصائد القديمة والمعاصـرة لحافظ إبراهيم، وأحمد شـوقى، وأحمد المرونى (شاعر من اليمن)، والوريث (شاعر من اليمن)، و السقاف (شاعر من اليمن)، وابن الرومى. (نقلاً عن موقع www.almaqaleh.net)

ترک الشـاعر صنعاء إلى حجة وهو فى الثانية عشـرة ليكون بالقرب من والده الذى كان فى السـجن بتهمة التعاون مع الثوار الذين زج بهم الإمام أحمد حميد الدين فى غياهب السـجون، بعد فشـل ثورتهم الكبرى سـنة ١٩٤٨م على أبيه الإمام يحيى حميد الدين.

انتقل الشـاعر إلى مصر سـنة ١٩٥٨م وكانت أول رحلة يغادر فيها بعيداً عن الوطن للدراسة، فقد حاول الدراسة فى جامعة القاهرة لكن ظروفاً حالت دون ذلک فعاد إلى اليمن.تكررت محاولته للالتحاق بجامعة القاهرة نفسـها سـنة ١٩٦٠م، وكانت المحاولة فاشـلة لأن الثورة (ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م) كانت على الأبواب. لم يتمكن من اسـتكمال دراسته جدياً إلا فى سـنة ١٩٦٧م حصل على الإجازة فى اللغة العربية وآدابها سـنة ١٩٧١م، ثم حاز على درجة الماجسـتر فى الأدب العربى على رسالته "الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر فى اليمن"، فى جامعة عين شمس، سنة ١٩٧٤م، ثم نال شهادة الدكتوراه بدرجة ممتاز جداً على أطروحته "شـعر العامية فى اليمن؛ دراسة تاريخية ونقدية" فى جامعة عين شمس سنة ١٩٧٧م. (المصدر نفسه)

شارک فى ثورة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢م باليمن من أجل تغيير نظام الحكم ونجحـت الثورة التى كانت قد غيرت مجرى تاريـخ إليمن، و كان يومئذٍ، بمبنى الإذاعة. عمل أسـتاذاً مسـاعداً فى جامعة صنعاء فى أواسط ١٩٧٠م، ثم أستاذاً، و كان بجانب تدريسـه بالجامعة يرأس إدارتها، ثم عين مستشـاراً ثقافياً لرئيس الجمهورية، ورئيساً لمركز الدراسات والوحدة العربية فى بيروت.وهو عضو مؤسس للأكاديمية العربى للشـعر فى إيطاليا، ومستشار مشروع كتاب فى جريدة الصادر عن منطقة اليونسـكو، ببيروت. حصل على جائزة اللوتس سـنة ١٩٨٦م، ووسام الفنون والآداب من عدن سـنة ١٩٨٠م، و وسـام الأدب والفنون من صنعاء سنة ١٩٨١م.كما حصل على الجائزة الثقافية العربية من الشارقة فى ٢٠٠١م.

أما الشـعر فهو مصدر إلهام هذه الشخصية، وإبداعه، وشـهرته المرموقة، فقد

كانــت له اليد الطولى فى نظمه، وإنشــاده، حيث كانت أغراضــه متنوّعة. وتمّت طباعة أشــعاره فى العديد من الدواوين والصحف والمجلات اليمنية وسائر البلاد العربية. (المصدر نفسه)

شخصيته الأدبية

لاشــک أن عبدالعزيزالمقالــح أحد أشــهر أدباء اليمــن المعاصرين وخارجها وخصوصاً فى مجال الشعر، والنقد الأدبى، والتدريس الجامعى، ولكن له أيضاً أعمالاً أدبية أخرى، وكتابات فكرية، وسياسية، وله أعمدة فى الصحف والمجلات اليمنية والعربية الأخرى. كما أن له دوراً هاماً فى الحراک الثقافى اليمنى من خلال مركز الدراســات اليمنية يرأســه، ومن خلال جهوده فى اتحاد الأدبــاء اليمنيين، ومن خلال تشــجيعه للأدباء الشــبّان، وكتابة مقدمات لعدد كبيــر من دواوين وكتب الأدباء الكبار والناشئين.

عبدالعزيز المقالح رجل لايســافر ولايغادر أرضه، وذلک فى زمن يتحرک فيه كل شــىء وكان من المفترض فى شــخص هذا شــأنه أن يكون مقيداً فى مكانه وينحصــر محلياً حتى ينســى، غير أن الذى يلمســه أى متابــع للحركة الثقافية العربية ســيلحظ أن عبدالعزيز المقالح يحتل صــدارة الحضور الثقافى العربى فى الميدان العربى كله.

وهو أحد رواد الأدب العربى الحديث وله تاريخ حافل بالعطاء والإبداع المتجدد فى ميدان الشــعر والأدب فقد كانت الحداثة هى المنهاج الذى سار عليه المقالح فى مســيرة عطاءاته الشعرية التى أثرت الحياة الثقافية بروائح.ينشر كل ما يكتبه فــى غلب المطبوعات الثقافية اليمنية والعربيــة ويطل على القراء اليمن، وبصورة دائمة، من خلال الجريدة ٢٦ سبتمبر الصادرة عن دائرة الصحافة والطباعة والنشر، وجريدة الثورة.

والمعروف أن المقالح لم يغادر اليمن منذ حوالى ثلاثين ســنة وقد اعتذر عن تلبية عشــرات الدعوات التى وجهت له متذرعاً بكثرة انشــغالاته وهذا أمر يلمسه كل من زار صنعاء أيام كان رئيســاً لجامعة صنعــاء ورأى انتقاله فى اليوم الواحد بين ثلاثة مكاتب فى ثلاثة أمكنة وإشــرافه على رسائل الماجستر والدكتوراه إلى

جانب حرصه على إيفائه بالواجبات الاجتماعية وحفاظه على التواصل مع أصدقائه فى مجلســه الأدبى واســتقباله واحتفائه بضيوف اليمن من الأدباء، والإعلاميين، والأكاديميين كما إن كتابته فى أكثر من صحيفة محلية وعربية أعمدة أسبوعية تســتغرق وقتاً مــن يومه إضافة إلــى كتابته مقدمات عشــرات الكتب والدواوين ومراجعته دواوين الشــعراء الشــباب خصوصاً، ومواظبته على القراءة بشكل يومى والأهــم من كل هذا مداومته على الكتابة الشــعرية وحرصــه على تطوير تجربته وانتقالــه من أفق إلى آخر بين فترة وأخرى فعــدم قبوله للدعوات التى توجه له وســط هذه التزامات والمشــاغل يبدو تحصيل حاصل رغــم أن البعض يردد أن المقالح يهاب ركوب الطائرات.

لكننى أرى أن السبب الحقيقى الذى يحول بين المقالح والسفر ليس الانشغالات والوضع الصحى بل شدة التصاقة بالمكان وصنعاء. (البردونى، ١٩٧٨م: ٢٠٦)

أبرز مؤلفاته

عبدالعزيــز المقالــح غنى عن التعريف فهــو من أدباء اليمــن والوطن العربى البارزين صدرت له العديد من المؤلفات الشعرية والأدبية منها:

١. لابد من صنعاء، دار العودة، بيروت، ١٩٧١م.

٢. مأرب يتكلم، بالاشــتراك مع الســفير عبده عثمان، الدار الحديثة للطباعة والنشر، تعز، اليمن، ١٩٧٢م.

٣. رسالة إلى سيف بن ذى يزن، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣م.

٤. هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادى، دار العودة، بيروت، ١٩٧٤م.

٥. عودة وضّاح اليمن، دار العودة، بيروت، ١٩٧٦م.

٦. الكتابة بسيف الثائر على بن الفضل، دار العودة، بيروت، ١٩٧٨م.

٧. الخروج من دوائر الساعة السليمانية، مطبعة فتاة الجزيرة، عدن، ١٩٨١م.

٨. وراق الجسد العائد من الموت، دار الحديثة للطباعة والنشر، تعز، ١٩٨٦م.

٩. أبجدية الروح، دار العودة، بيروت، ١٩٩٨م.

١٠. كتاب صنعاء، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ١٩٩٩م.

١١. كتاب القرية، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م.

١٢. كتاب الأصدقاء، دار الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٢م.
١٣. كتاب بلقيس وقصائد لمياه الأحزان، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
١٤. كتاب المدن، إصدارات وزارة الثقافية والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٥م.
(نقلاً عن موقع www.almaqaleh.net)

المؤلفات الأدبية

١. الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر فى اليمن، دار العودة، بيروت، ١٩٧٨م.
٢. شعر العامية فى اليمن.
٣. قراءة فى أدب اليمن المعاصر.
٤. أصوات من الزمن الجديد.
٥. الزبيرى ضمير اليمن الوطنى والثقافى.
٦. يوميات يمانية فى الأدب والفن.
٧. قراءات فى الأدب والفن.
٨. أزمة القصيدة الجديدة.
٩. قراءة فى كتب الزيدية والمعتزلة.
١٠. الوجه الضائع، دراسات عن الأدب والطفل العربى.
١١. عمالقة عند مطلع القرن. (المصدر نفسه)

دراسات عن شعره

١. إضاءات نقدية: عزالدين إسماعيل وأحمد عبدالمعطى حجازى وآخرون.
٢. النص المفتوح دراسات فى شعر عبدالعزيز المقالح مجموعة من النقاد.
٣. بنية الخطاب الشعرى: عبدالملک مرتاض.
٤. شعرية القصيدة: عبدالملک مرتاض.
٥. الحداثة المتوازنة (عبدالعزيز المقالح: الحرف، الذات، والحياة) إبراهيم الجرادى.
٦. المضامين السيكولوجية فى شعر عبدالعزيز المقالح: جاسم كريم حبيب.
٧. ثلاثة شعراء معاصرين من اليمن (باللغة الإنجليزية): بهجت رياض صليب.

٨. عبدالعزيز المقالح، الشاعر المعاصر: محمد النهارى، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٣م.
٩. عبدالعزيز المقالح ناقداً، ثابت بدارى. (المصدر نفسه)

أشعاره

بدأ كتابة الشعر فى منتصف الخمسينيات، وهو قديم العهد بالشعر، ربما ترجع بدايتــه فيه إلى بداية عام ١٩٥٨م، فقد نرى له قصائد عام ٥٨ و٥٩، وكان يذيلها باســم مستعار، هو ابن الشــاطئ إلا أنه غير راض عما ينتجه من الشعر والكتابات لأنه شــديد الحساب لنفسه سريع الاســتجابة لها، يستجيب لهواتف الشاعرية فى نفســه فيتوقف عن النثر أو يستعير اســماً يتوارى خلفه، وهذا يرجع إلى أمرين: الأول. حساب الشاعر لنفسه. الثانى. سعة ثقافة الشاعر. (البردونى، ١٩٧٨م: ٢٠٧)

واليــوم ظهــر عبدالعزيز المقالح كما يريد للشــعر، فهو فاتح كبير فى الشــعر الجديد بنوعيه: الحر والعمودى.وأىّ قارئ يتصفح دواوين هذا الشاعر الكبير، فإنه دون شــك سوف يدرك أنه قد أنشد شــعراً فى مختلف الأغراض الشعرية، لذلك نجــد دواوينه يتناول مواضيع متنوّعــة مثل: المديح، والرثــاء، والغزل، والوصف، والزهد والتصوف، والمســرحية، والــدرام، والوطنيات، وقصيدة النثر، وما إلى ذلك من أغراض شــعرية. كذلك نلاحظ تأثير القرآن، والدين، والبيئة التى يعيش فيها على قصائده، وأشار الشاعر على إشارات التاريخية فى أشعاره.

أشير هنا إلى بعض مضامين مقالح الشعرية:

أولا، العلوم الدينية، والإشارات التاريخية

يتكئ الشــاعر كثيراً على الإشــارات التاريخية التى يتخذها رموزاً ومرايا لرؤاه، ويســتعير لها وقائع من الكتب السماوية وبخاصة (القرآن الكريم) كقصة "سليمان وبلقيس"، وقصة "يوسف" الذى غدر به إخوته، إذ يغدو دمه اليابس على القميص شــاهد إدانة للنظم فى كل العصور، وقصة امرأة عزيز مصر التى راودت "يوسف"، ومن التاريخ العربى حرب "داحس والغبراء" و....

١. قصة يوسف:

لاتَقُلْ ما ترى
فى القميصِ دمٌ يابسٌ

بيدَ أنّكَ لاتقراءُ الدَّمَ
والذئبُ متّهمٌ
بيد أنّكَ لاتعرفُ الذئبَ،
عيناک لاتريانِ
(المقالح، ۲۰۰۴م: ۶۴)

أشار الشاعر هنا إلى الآية الشـــريفة: ﴿**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾ (یوسف: ۱۸)

۲. یوسف فی الجُبِّ (البئر)
حینَ جاءتْ إلی الجُبِّ قافلةٌ
ومنَ الجُبِّ أنقذَنی أهلها
ورأیتُ السماء
ضَحِکْتُ...
کأنّنَی منْ رَحِم الأرضِ جئتُ:
وها أنا ذا الآنَ فی الجُبِّ
فی رَحِمِ الرُّعْبِ.
(المقالح، ۲۰۰۴م: ۶۴۸)

نلاحظ الإشارة إلی الآیة المبارکة: ﴿**وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ (یوسف: ۱۹)

۳. قصة سلیمان وبلقیس:
قالَ سلیمانُ: انکسری یا شهوةَ أحلامی
هذی المرأةُ فاتنةٌ
وأنوثتها فی حکمتِها
لا الخمرةُ باحتْ بالأسرارِ
ولا السّاقانِ...
الحبُّ هراءْ،
الشعر هراءْ،
والحکمةُ بابُ سماواتِ الشرقِ
(المصدر نفسه: ۲۶)

٤. خطاب مفتوح إلى أهل (داحس والغبراء)

إنهم قومٌ داحسْ،
أجفانُهم كالمفازاتِ غبراءُ،
لايشبهونَ البلادَ التى خرجوا
من محاجرها...
يتواصونَ بالموتِ،
لايتواصونَ بالحبِّ حزنى عليهم
وهمْ حزنُ هذى البلادِ.
(المصدر نفسه: ٨٦)

ثانياً، الزهد والتصوف

صوفية الشـاعر عبدالعزيز المقالح ترسـم له طريق الخلاص بالحلم والشـعر، ومهمـا كانت هذه الصوفية خيالية فهى تظل المرحلة التى ينتقل فيها الإنسـان من الانفعال إلى العمل، ومن رفض الواقع إلى البحث عن بديل يتجلى فى عظمة الـروح، وقد فتحت له هذه الصوفية آفاقاً من الحلم فالتخيل، فاغتنى بها الشـعر، وامتدت رقعة ميادينه ليكون توقاً، وتحرراً، وواحة راحة لنا بعد أن أتعبتنا الحياة.

يا شيخى
دثّرْنى بعباءةِ أهلِ العشق الأكبر
خُذْ بيدى منْ هذا اللّيلِ
إلى شمسٍ لا تغربْ
ونجوم لاتغنى
سبقتنى الأحلام إليكَ
ومازالتْ عطشى
تركضُ خلف النارِ الخضراء
تنادى: يا عبدَ الله
(المقالح، ٢٠٠٤م: ١٦٤)

ثالثاً، الرثاء

فـى مراثى عبدالعزيـز المقالح نجـد أن الحضور الأكبر يكون له هو الشـاعر

والإنسان المترنج تحت ثقل الفقد ومرارته وهو حضور يكاد أن يطغى على حضور الموت نفسه الذى هو موضوع المرثية.

كانت البداية الصحيحة لكتابة القصيدة عند المقالح فى "حجّة" فقد توفى أخوه الصغير فحزن عليه الشاعر حزناً شديداً، وكتب أثر ذلک قصيدة فى رثائه شارک فى تقويم أوجاجها الوزنى كل من الشاعر أحمد المرونى والقاضى عبدالله الشماحى.

نشـر أول قصيدة وقد كانت عبارة عن مرثاة بمناسـبة مـرور الذكرى الثانية لوفاة صديق عزيز له، فقده فى مطلع شـبابه، وكانت وفاته بالنسبة للشاعر كارثة، ونشـرتها جريـدة النصر بتعز مرفوقة بمقالة طويلة لشـقيق صاحب الذكرى، ولم تظهر القصيدة موقعة باسـم الشاعر، فقد كان مايزال متردداً، وغير مصدق أن هذا الذى يكتبه شـعراً، واختار أن تنشر القصيدة تحت توقيع: ابن الشاطئ، مع العلم أنه كان وقتئذ يقيم فى حجة وليس فيها بحر، ولا شاطئ.

يقول فى وداع الزميل عبدالله حمران:

للموتِ رِعْشَتُهُ ووحشتُهُ
وللموتِ البدايةُ والنهاية
يا أيّها الموتى
أخْرُجوا من ثوبِ هذا العمر
إنَّ الموتَ منتظرٌ
وفى كفَّيه خاتمةُ الرِّواية
(المقالح، ١٩٨٦م: ٦٢)

رابعاً، المسرحية والدرام

إن المسـرح بوصفه أبرز النشـاطات الثقافية، إذا كان من شـأنه أن يشـكل عامل توحد إنسـانى، لفتح آفاق الحـوار بين مختلف الأجناس، والأعراق، والألوان على اختلاف معتقداتهم، فإنه من شـأنه التطلع إلى خدمة الأوطان، والدعوة إلى تحررهـا، والوقوف أمـام الظالم المعتدى؛ وهذه النزعـة الوطنية، لاتوجد إلا بين أبناء الوطن الغيورين، الذين اسـتخدموا الكلمة ذودا عن ديارهم، وأبناء أوطانهم. (بندبى، ٢٠١٠م: ١١)

ويخطو الشـاعر عبدالعزيـز المقالح خطوات مهمة وعميقـة وواعية بملامحها

وأبعادهـا الجديـدة، وبنياتها الأسـلوبية والصياغـة المتفردة نحـو عوالم ملامع الدارميـة المتكاملة فى الملامح والأدوات والرؤيا التى اسـتطاعت بتميزها وثرائها وتنوعها واتساعها أن تحتوى الأصوات المتعددة والشخصيات المتضادة والأحداث المتصارعـة والرؤى والمواقف المحتدمة والمتوترة حتى يصل بها إلى كونها عرضاً دراماياً ممسرحاً تتفاوت فى صنعه عوامل كثيرة تقربها من طبيعة الفن المسرحى، ومسـرحة القصيدة، كما فى ديوانه الخامس "عودة وضّاح اليمن". حيث اسـتطاع الشاعر أن يتابع هذه الشخصيات ويحرك وجودها التاريخى، إذ أكسبها بعداً عصرياً جديـداً، كما فى قصيدته المدورة "عودة وضّاح اليمن" حيث اسـتكمل دراميتها بمـزج صوته بصـوت وضّاح وروضة وصوت صنعاء واسـتحضر الواقعـة التاريخية والشعرية والأسطورية والمعاصرة، وأزمنة الماضى والحاضر ومن الكتابة من خلال الرمز والقناع والأسطورة، بالحوار والاستبطان والتداعيات. (الصكر، ١٩٩٦م: ٨)

فيقول:

عودة وضّاح اليمن

ضائعاً- كنتُ – محترقاً، أتمزَّقُ فى قبضةِ اللّيلِ والشَّجنِ البربريِّ الرَّماديِّ، أصرخُ، أرحل فى سفنِ الحزنِ، تحملُنى فى بخارٍ من اليأس، أذكرُها تتعذَّب بعدى، تواجهُ أعداءَها فى ثباتٍ. أمدُّ يدى نحوها، تتراخى يدى تحتَ رعبِ المسافاتِ، أبكى، يطيرُ بى الدمعُ، يرجعُ بى نحوها. يالَرَخٍّ من الدمعِ يحملُنى فى حنانٍ رحيم!

(أتساءل أينَ الطريق إليها، فأسمعُها تتكلّمُ):

من أنتَ؟ ما تبتغى من فتاةٍ عجوزٍ بلا زادٍ أسلَمَها قومها للمجاعةِ والموتِ، باعوا ضفائرهـا للضلامِ حبـالاً، وناموا على عتبات المواعيدِ يقتسـمونَ كؤووسَ المهانةِ فـى الحُلمِ، يختصمون على القيدِ، يحتطبون بوادى الثعابينِ، يسـتمطرونَ الغبارَ العقيم؟ (المقالح، ١٩٧٦م: ٧)

وقد ضم ديوان "رسالة إلى سيف بن ذى يزن" خمس قصائد – أو رسائل شعرية - طوال حملت اسـم المجموعة، ولم يعد الشـاعر فى هذه القصائد يعنى بالتعبير الغنائى والذاتى المباشـر الذى يتحدث فيه عن تجربة شـخصية أو ذاتية محضة، وإنما اسـتغل الشاعر تعداد الأصوات والشـخصيات والإهتمام بالحدث الرئيسى أو الأحداث الصغيرة الجانبية المرتبطة بهذا الحدث وتطورها ونموها ورصد التناقضات

التى تعانى منها هذه الشخصية فى تحولاتها، فى محاولة منه لخلق أشكال بنائية وتعبيريــة جديدة ومعقّدة ومركّبة، تمثل منحنى القصيدة نحو الدرامية والحوارية والســردية والقصيصية، فالتعبير بالصور أصبح تعبيراً بنائياً، ونمو البناء الدرامى فى القصيدة على شــكل دورات متوازية ومتناظرة ومتنامية، أكسبها تماسكاً وحيوية، وجعلها تنبض بالحياة والحركة والرمز والأسطورة والقناع التاريخ الشعبى والمكتوب، وقــد اقتربت قصيدة المقالح من جوهر الدراما من دون أن تفقد شــفافية الشــعر وشحنته العاطفية ورؤاه المثيرة والمدهشة وصياغته التخييلية والواقعية.

إلى أين أكتب يا (سيف)؟
أين غداً ستكون؟
أتحيا طليقاً
أم احتَجَزَتْكَ البحارْ،
وألقَت عليک السُّجُونُ شباک الحِصار؟!
(المقالح، ١٩٧٣م: ٣٧)

خامساً، وطنيات

والشاعر عبدالعزيز المقالح ملحمى النفس، اجتهد فى الاجتياز بشعره من الغنائية الذاتية إلى شعر ميتافيزيقى وطنى يختار حب الوطن تحت إخفاء المعانى المباشرة السطحية لهذا الحب والارتقاء بها، و بالحدث التاريخى إلى الحلم العميق، من خلال الحنين إلى الماضى وبعثه والنظر إليه على أنه فردوس مفقود كطفولته الضائعة.
(غانم، ٢٠٠٩م: ٧)

عصفــورٌ عــادَ إلــى اليمــنِ يتدثَّــر أمطــارَ الشَّــجنِ
ينقــرُ فــى تربتهــا، يَزْقُــو: وطنــى وطنى، وطنــى وطنى
(المقالح، ٢٠٠٤م: ٤٣٣)

وطن
صباحَ المحبّةِ
والشعرِ
يا أيها الوطنُ الأخضرُ
المحتزِّمُ بالضوءِ

يا وطناً سكنتْهُ العقيدةُ
(المصدر نفسه: ۶۸۲)
وفى قصيدة آخر يصف الوطن:

منْ أينَ للعربِ الأمواتِ يا وطنى مبكىً يطوفونَ فى ساحاتِهِ خجلا
لعلَّ نــارَ بكاء الشــعبِ تعصرُهُ حزناً، و تخلقُ فيهِ المجدَ والبطلا
(المصدر نفسه: ۴۷۲)

سادساً، قصيدة النثر

وللمقالــح موقــف معروف من قصيدة النثر «قصيدة النثر هى شــعر شــريطة أن يكتبها شــاعر متمرس علاقته باللغة العربيــة عميقة الجذور قادر على تركيب المفــردات وبنائها بناء شــعرياً يعوضها عمّا فقدته من إيقــاع خارجى يتمثل فى الــوزن وأحياناً فــى الوزن والقافية، ولاأتردد فى القول بأن غالبية ما ينشــر تحت اســم قصيدة النثر لايعدو أن يكون ثرثرات لفظيــة لامعنى لها ولا قيمة، والقليل منها هو الذى يســتأثر بالوجدان وينتقل بقارئ الشعر من عصور سابقة إلى عصر جديد أو أجد، ويؤسفنى أن المعارک التى تدور حول هذا الشكل من الشعر تأخذ مسارات تسىء إلى الشعر وتهدم أسس التحديث وتعمل على تحويل طاقة الإبداع إلى مواقف للصراع الذى لايسفر عن شىء قيمة.» فقال:

اللوحة الثالثة والعشرون
عينُهُ فى الأعالى
يقلِّبُها يمنةً، يسرةً
لاتكفُّ عصاهُ عنِ الاحتجاجِ
ولافمُهُ:
عبثاً كلُّ ماتعملونْ
عبثاً كلُّ ماتكتبونْ..
ذاکَ مجنونُ قريتنِا
كنتُ أحسدُهُ فى الطفولةِ
أحسدُهُ فى الشبابِ
وأحسدُهُ الآنَ...
(المقالح، ۲۰۰۰م: ۷۴)

ويشير فى قصيدة آخر:

حاجزٌ أبديٌّ منَ الشّكِّ
والريبةِ المستديمةِ بينَهما..
بينَ قريتِنا والمدينةْ.
المدينةُ ناكرةٌ للجميلِ
وعابثةٌ
(المقالح، ٢٠٠٤م: ٥٧٨)

ولابد من الإشـــارة إلى أن كتّاب القصيدة النثرية فى اليمن، حصلوا على دعم نقدى جاد ومنهجى فى وقت مناســـب، فقبلت نصوصهم للنشر إلى جانب الأنواع الأخرى، وتهيأ لها مســـتند نظرى واع وحيوى، يتمثل فى كتابات الناقد والشـــاعر عبدالعزيز المقالح الذى أظهر قبولاً مدروساً وحذراً ومشجعاً لتجاربهم، مطلقاً على القصيدة اسم (القصيدة الأجد) بعد أن زال تحفظه تجاها شيئاً فشيئاً فساهم كما يقول عصام محفوظ فى التطوير الشـــعرى انســـجاماً مع نظرتة الثورية، فقد تنبه المقالح إلى القوانين الفنية لقصيدة النثر على المســـتوى النظرى، ونبه مبكراً إلى تحررهـــا نهائياً مـــن عنصرى الوزن والقافية وبقائها رغم ذلک منتمية إلى الشـــعر المتجاوز، مشيداً بالتجربة اليمنية الحديثة رابطاً بين تبدلاتها الإيقاعية والتعبيرية، وبين مســـتجدات الظرف الحياتى الواقعى فى الوطن العربى عامة، واليمن خاصة، ورافضاً فى الوقت نفسه، تلک النماذج السطحية المكتوبة باسم قصيدة النثر.

وإذا كنـــا قد أخرّنا الحديث عن أول نصوصنا المختارة (للمقالح) فإنما لنشـــير إلى موقف معتدل وواع من قصيدة النثر. فالمقالح رغم تجربته الشـــعرية الطويلة والراســـخة كإحدى التجارب المبكـــرة فى قصيدة الحرة العربيـــة وأولى التجارب الحديثة فى اليمن، لم يتحفظ على قصيدة النثر شـــكلاً شعرياً أو نوعاً كتابياً كما أشـــرنا من قبل، بل تجـــاوز موقف التحفظ كما يصرح فـــى كتابه "قراءة فى أدب اليمـــن المعاصـــر" مرجعاً ذلک إلى ما أنجـــزه كتاب القصيـــدة النثرية فى اليمن من نماذج "أكثر تجاوزاً وشـــعرية" وإذا علمنا أن موقفة هذا مسجل ومنشور منذ منتصف الســـبعينيات، أيقنا أنه اضاف دعماً نظرياً هائـــلاً لكتابة قصيدة النثر، بل أخذ يقترب من تجارب كتابها، مؤرخاً لســـيرورتها العربية ومراحلها التى مرّت بها

منذ مطلع القرن العشـــرين، معرّفاً بتجارب الريحانى، ومى زيادة، وباكثير، ولويس عـــوض، وغيرهم، وصولاً إلى تجارب الماغوط، كما يناقش المقالح على مســـتوى نظرية الأدب قضايا وإشكالات مهمة كصلة قصيدة النثر بالتراث وموقفها من اللغة، كمـــا يعرف بكتابها فى اليمـــن ويقترب نصياً محلاً تجاربهـــم... فلا غرابة إذن أن يكتب المقالح بعد سنين نصوصاً نثرية فى أعماله التى تشكل سلسلة أو متوالية، وهـــى "كتاب صنعـــاء" و"كتاب القرية" وهذه النصوص فـــى كتابين تلى المقاطع الموزونة، وتشكل معها ثنائية تشبه تماثل أو تناظر الضوء والظل فى اللوحة، فهى ذات وجود أساســـى لا هامشـــى، وإن جاءت تالية للنصوص الموزونة، مميزة عنها بلون الحـــرف المغاير، وموضوعة بين أقواس، ومفصولـــة عنها بنقاط حاجزة بلون مســـيجة لحدود النصين، كى ينبه القارى إلى تغيـــر الإيقاع وما يتطلبه من تغير أفق قراءته، يقول فى اللوحة الثالثة وعشرين من كتاب القرية:

عينُهُ فى الأعالى
يقلِّبُها يمنةً، يسرةً
لاتكفُّ عنِ الاحتجاجِ
ولا فمُهُ:
"عبثاً كلُّ ما تعملونْ
عبثاً كلُّ ما تكتبونْ"...
ذاكَ مجنونُ قريتِنا
كنتُ أحسدُهُ فى الطفولةِ
أحسدهُ فى الشبابِ
(المقالح، ٢٠٠٠م: ٧١)

النتيجة

كان عبدالعزيز المقالح أحد رواد الأدب العربى الحديث وله تاريخ حافل بالعطاء والإبداع المتجدد فى ميدان الشـــعر والأدب فقد كانت الحداثة هى المنهاج الذى سار عليه المقالح فى مسيرة عطاءاته الشعرية التى أثرت الحياة الثقافية بروائح.

وقداستطاع شاعرنا أن يستند فى أشعاره إلى القرآن، والأحاديث بشكل صحيح

عن طريق التلميح، والاقتباس فيمكن لنا أن نحكم بأنها تنبع عن عاطفة دينية نقية.

واجتهد فى اجتياز بشعره من الغنائية إلى شعر ميتافيزيقى وطنى يختار حب الوطن تحت إخفاء المعانى المباشرة السطحية لهذا الحب والارتقاء بها، وبالحدث التاريخى إلى الحلم العميق، من خلال الحنين إلى الماضى وبعثه النظر إليه على أنه فردوس مفقود كطفولة الضائعة.

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ البردونى، عبدالله. ١٩٧٨م. رحلة فى الشعر اليمنى قديمة وحديثة. بيروت: دار العودة.

ـ بندبى، زهره. ١٣٨٨ش. فصلية دراسات الأدب المعاصر، السنة الثانية، العدد الخامس، شتاء.

ـ الصكر، حاتم. ١٩٩٦م. قصيدة النثر والشعر العربى الجديد. مجلة فصول. القاهرة العدد الثالث.

ـ غانم، شهاب. ٢٠٠٩م. مقال مع الشاعر عبدالعزيز المقالح. لانا.

ـ المقالح، عبدالعزيز. ١٩٧٣م. رسالة إلى سيف بن ذى يزن. بيروت: دار العلم للملايين.

ـ المقالح، عبدالعزيز. ١٩٧٦م. عودة وضّاح اليمن. بيروت: دار العودة.

ـ المقالح، عبدالعزيز. ١٩٨٦م. أوراق الجسد العائد من الموت. اليمن: دار الحديثة للطباعة والنشر.

ـ المقالح، عبدالعزيز. ٢٠٠٠م. كتاب القرية. لندن: دار رياض نجيب.

ـ المقالح، عبدالعزيز. ٢٠٠٤م. الأعمال الشعرية الكاملة. صنعاء: إصدارات وزارة الثقافة والسياحة.

ـ المقالح، عبدالعزيز.٢٠٠٤م. كتاب بلقيس وقصائد لمياه الأحزان. اليمن: إصدارات وزارة الثقافة والسياحة.

ـ موقع عبدالعزيز المقالح www.al-maqaleh.net